المحاضرة الخامسة
في قصيدة النثر

أولا: في تعريف قصيدة النثر:

لابد أن نقرّ ابتداء أنّ مصطلح قصيدة النثر عانى أكثر من غيره من المصطلحات في تشكيل مفهومه الّذي ظل رغم المحاولات المتكرّرة من قبل النقاد والباحثين يعيش حالة من المدّ والجزر. ولعلّنا نستطيع من خلال هذه المفاهيم المتصارعة أن نقول أنّ قصيدة النثر هي عبارة عن نصّ تهجيني يمتاز بانفتاحه على الشعر والسرد والنثر الفني؛ يتسم بافتقاره للبنية الصوتية الكمية ذات التنظيم، لاتكائه بشكل كبير على نظام إيقاعي داخلي مهيمن.

ثانيا: في تسمية قصيدة النثر:

لا جرم أن المصطلح الّذي أصبح معروفا به هذا الجنس الشعري الجديد الّذي يجمع بين الشعر والنثر هو مصطلح قصيدة النثر، غير أنّ هناك من رفض هذه التسمية، وآثر عليها تسميات أخرى أصلح، حيث ذهب فريق إلى الأخذ بالمصطلحات الّتي كانت شائعة، بناء على أن هذا الفنّ معروف من قبل، ولا حاجة لإرهاق القارئ بمصطلحات جديدة، وراح فريق آخر يوّلد بدائل اصطلاحية أخرى يرى أنها أصلح من مصطلح قصيدة النثر. وقد أدّى هذا الاختلاف إلى وجود تسميات عديدة منها: النثر المرسل، الشعر المنثور، النثر الفني، النثر الشعري، النثيرة، الخاطرة، الخاطراتية، الجنس الثالث، كتابة خنثى، النص المفتوح.

ثالثا: إشكالية المصطلح:

ويرجع هذا الرفض الّذي صاحب ظهور مصطلح قصيدة النثر إلى الاشكالية الّتي يثيرها هذا المصطلح من حيث إنّه يسعى إلى جمع جنسين متناقضين هما الشعر والنثر، فهذا عبد العزيز المقالح يقرّ بخطأ هذه التسمية، بناء على حالة التضاد الّذي تتضمّنها، فالنثر نثر والشعر شعر ولا يلتقيان[1]، وقد اقترح مصطلحا بديلا هو "القصيدة الأجد". كما يذهب عبد الكريم الناعم مذهبا قريبا من ذلك حين يعلن أن تسمية "قصيدة النثر" لا تخلو من تضاد (قصيدة ≠ نثر)[2]، ولكن الباحث لا يملك إلا التسليم بهذا المصطلح بسبب من شيوعه وتعذر استبداله[3].

أما الباحث محمد فكري الجزار فيقرّر أن ثنائية نظم/نثر التي تقسم الإنتاج الشعري إلى قصيدة نظم وأخرى قصيدة نثر، برغم إشارتها إلى توفر عناصر الشعرية في الأخيرة، تتضمن إشارة نقيضة من خلال إضافة النثر إلى القصيدة[4]. ولعلّ من اللذين يرون صلوح مصطلح "قصيدة النثر" لهذه الظاهرة الشعرية هو الناقد المغربي نجيب العوفي، وذلك لأنّه يجمع- حسب رأيه- بين أهم خاصيتين؛ الأولى وهج الشّعر (قصيدة)، والثانية سيولة النثر (نثر)، وبذلك فإن تسميتها المتداولة تبقى- حسب رأيه- هي الأدلّ على هذه الظاهرة والأنسب لها[15].

---

[1] - انظر: عبد العزيز المقالح: أزمة القصيدة العربية، مشروع تساؤل، دار الآداب، بيروت، ط1، سنة 1985، ص71. والملاحظ أن المقالح لا يثبت على المصطلح البديل الذي يقترحه، إذ سرعان ما يستبدل به مصطلحا آخر هو "النص الشعري "وذلك بدءا من الصفحة 74 من كتابه المذكور

[2] - عز الدين المناصرة: إشكاليات قصيدة النثر، ص306

[3] - نقسه، ص311.

[4] - انظر محمد فكري الجزار: لسانيات الاختلاف، الخصائص الجمالية لمستويات بناء النص في شعر الحداثة، إيتراك للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، سنة2002، ص17.

[5] - عز الدين المناصرة: إشكاليات قصيدة النثر، ص226.

رابعا: نشأة قصيدة النثر:

هناك اختلاف واضح بين النقّاد والباحثين حول أوّل قصيدة نثرية ظهرت إلى الوجود، فبعضهم يشير إلى أنّ أولى التجارب ارتبطت بمجلة الشعر أيضا، وبشعرائها ولاسيّما منهم أدونيس. غير أنّ أقرب الآراء تميل إلى أنّ قصيدة النثر ظهرت سنة 1954م، وذلك من خلال صدور مجموعة (ثلاثون قصيدة) لتوفيق صايغ (فلسطيني من أصل سوري)، وإلى جانب أدونيس وتوفيق الصايغ هناك رواد آخرون لقصيدة النثر هم: (جبرا إبراهيم جبرا، محمد الماغوط، شوقي أبي شقرا، أنسي الحاج)، (فاضل العزاوي، عزّ الدين المناصرة)، (سرجون بولص، بولشاؤول، سليم بركات، عباس بيضون، بسّام حجّار، صلاح فائق).

أمّا على الصعيد النقدي فيكاد يجمع الدارسون على أن مصطلح قصيدة النثر قد رأى النور سنة 1960 على يد الشاعر الناقد أدونيس (علي أحمد سعيد)، حينما نشر مقاله (في قصيدة النثر) في مجلة الشعر الّتي كان أحد أعضائها المؤسسين، متأثرا في هذا الصدد بالمصطلح الفرنسي (le poéme en prose) الّذي أشاعته سوزان برنار (Suzanne Bernard) في كتابها قصيدة النثر من بودلير حتّى الوقت الراهن (le poéme en prose de Baudelaire jusqu'à nos jours).

خامسا: جذور المصطلح:

وترجع إشكالية قصيدة النثر على مستوى المفهوم والمصطلح إلى ذلك الجدل الّذي دارت رحاه حول جذور هذا المصطلح؛ فمن قائل أنها ذات منشأ غربي بحت، ومن قائل أنّها لها أصولا في الثقافة العربية:

أ- الأصل الغربي: يرى هذا الفريق أنّ قصيدة النثر ذات أصول غربية، حيث تبلورت في فرنسا على يد الشاعر (شارل بودلير)، ومن الباحثين من يرجع بتلك الارهاصات الى أوائل القرن الثالث الميلادي على يد الشاعر (اوسيان)[6]. وقد كانت هناك مجموعة من المحاولات التي تحاول ارساء المبادئ الأساس لقصيدة النثر [7]، ومنها محاولات (تيلماك) و(شاتوبريان) والرومانتيكيين الّذين سعوا إلى تحرير اللغة والتجديد الشعري[8]. غير أن هذه المحاولات ظلّت قاصرة إلى أن جاء بودلير الذي جعل القصيدة النثرية ضربا جديدا من ضروب الشعر [9].

ب- الأصل العربي: يرى بعض النقاد أنّ قصيدة النثر هي جنس عربي تطّور من النصّ العربي، حيث ظهرت مع بداية القرن العشرين محاولات شعرية شبيهة بقصيدة النثر، خرجَت عن الشكل المألوف للشعر التقليدي الموروث، وأقدم هذه المحاولات عُرفَ باسم الشعر المنثور، وكان أمين الريحاني[10] رائده، فهو أول من فتح هذا الباب في عام 1905 في مجموعته "هتاف الأودية" التي تأثّر فيها بالشاعر الإمريكي **والت ويتمان** (Walt Whitman) [11]، كما ظهر ما اصطلح عليه بالنثر الشعري الذي كان من رواد كلّ من جبران خليل جبران في كتابه (دمعة وابتسامة) سنة 1914[12]، ومصطفى لطفي المنفلوطي في (العبرات) و(النظرات)، ومصطفى صادق الرافعي في (حديث القمر) و(رسائل الأحزان) و(السحاب الأحمر).

---

[6]- ينظر : عبد الستار جواد: قصيدة النثر في الادب الانكليزي، ص51 ، وقصيدة النثر في الأدب العربي، ص14 .

[7] - ينظر : قصيدة النثر من بودلير الى ايامنا ، سوزان برنار ، ص28 ، قصيدة النثر في الادب العربي المعاصر ، ص14 .

[8] - ينظر: المرجع نفسه، ص27 – 61 ، واشكال الشعر الفرنسي المعاصر : القصيدة النثرية ، جان موريس جوتيه .

[9] - يُنظر: نفسه، ص 71 – 92 .

[10] - وتبعه مطران سنة1906م، في مرثيته لأستاذه اليازجي.

[11] - ومنها قوله في مرثاة الملك فيصل: حلّق النّسْرُ في الفضاء بعيدا/ رجع النّسْرُ في الفضاء شهيدا/ نسرُ العروبة مدرجةُ السهول/ ومشحذ جناحه جبال الرسول/ نسرُ العروبة حبيب الحرم، ورييب البوادي/ البادية مرضعته، والخيام مأواهُ/ الرمال فراشه وملعب صباهُ/ نسر العروبة في حمى الحرية/ طليقٌ جريءٌ، وديعٌ أبيٌّ أنيسٌ وفيّ.

[12] - الذي نُشرت فصوله في جريدة "المهاجر" بين عامي 1903م و1907م عبد الله الغذامي: الصوت القديم الجديد- دراسات في الجذور العربية لموسيقى الشعر الحديث، سلسلة كتاب الرياض، مؤسسة اليمامة الصحفية- الرياض- السعودية، سنة 1420هـ، ص21. نشأ الشعر المنثور أو الشعر النثري متأثّرا بالأدب الإنجليزي الّذي عرف ما اصطلح عليه بـ(free verse) الّذي ترجمه الفرنسيون بـ (Vers liber)

سادسا: خصائص قصيدة النثر:

نظرا لإشكالية هذا الجنس الأدبي فقد وقع خلاف شديد في تحديده خصائصه، ويمكن أن نخرج من ذلك بذكر الخصائص التالية:

1- **النثرية**: تشكّل قصيدة النثر بنيتها الجمالية على الخاصية النثرية، بحيث تخلّت بشكل مطلق عن الوزن والقافية، وعن كلّ المظاهر الموسيقية الّتي كانت تعتمد عليها القصيدة الخليلية أو قصيدة التفعيلة سواء ما تعلّق منها بإيقاعية الأصوات أو التحسينات البديعية كالجناس أو المقابلة أو الموازنة.

2- **الكثافة**: يبتعد هذا الشكل الجديد عن كل خصائص النثر من استطراد وإيضاح وشرح وإطناب، وتكمن خاصيته الشعرية في كثافته وإشراقه، وبعبارة أدونيس انه " كتلة مشعة مثقلة بلا نهاية من الإيحاءات قادرة على أن تهز كياننا في أعماقه، إنها عالم من العلائق".

3- **الغموض وصعوبة الفهم والتفسير** بشكل مطلق؛ فهي تعتمد بشكل كبير على الرمزية الّتي تجعل النصّ عبارة عن كومة من الطبقات الدلالية المغيبة. ومن ثمّ فإنّه يتوجّب على قارئ قصيدة النثر التروّي والتأمّل في قراءتها.

4- **الرؤياوية**: تتميّز قصيدة النثر بطبيعتها الفلسفية، فهي لا تعبّر عن لحظات شعورية أو مواقف عاطفية خاصة، وإنّما تنبي على رؤيا شعرية ذات أبعاد فلسفية متعدّدة.